طبيعية، وكوصف الصحراء الليبية والهياكل الدينية التي صادفها «ماتو» حين أراد أن يسرق «الوشاح» المقدس وما إلى ذلك.

وبعد، فأين وصف هذا الجيش من وصف «تولستوي» للجيوش الروسية النمسوية[٣٣] أو حتى وصف «هوميروس» لترس «آخيل» العظيم[٣٤]؟.

إن أوصاف كل من «تولستوي» و«هوميروس»، التي لا نستطيع أن ننقلها في هذه العجالة، رائعة الغنى بالحركة والتمثيل والحياة، فكل الحواس تستمتع بهذه الأوصاف وتشارك في التخيل. إن الأدبيين الكبيرين لا يخاطبان عيوننا فحسب، بل يخاطبان آذاننا وأنوفنا وألسنتنا وملامسنا. كل ذلك أثناء الحركة لا السكون.

وهذا يقودنا إلى التعرض إلى قضية هامة أثارها أحد النقاد الألمان، وهو «ليسنج»، وهي قضية الموازنة بين قدرة الشعر على تصوير مشاهد معينة وبين قدرة الفنون التشكيلية على تصوير المشاهد نفسها.

إن «ليسنج» يرى أنه من الخير للشاعر أن يذكر دائماً أن له لحظات متتالية في الزمن، بينما للفنانين التشكيليين والمصورين لحظة واحدة في المكان[٣٥] وهذا ما يمتاز به الشعر عن فن الرسم أو النحت، فالشاعر يستطيع أن يرصد الحركات الممتدة في الزمان، بينما لا يستطيع الفنان التشكيلي أن يرصد غير حركة واحدة في المكان.

ويمكن أن نقول إن النثر أيضاً ينبغي أن يكون مثل الشعر حين يتناول وصف الأمكنة والمشاهد، كي لا يتطفل على مجالات ليست مجالاته، وهذا ما نفتقده في نثر الطبيعيين بصفة عامة. إن الطبيعيين يخرجون بالوصف عن نطاق تخصصه ليجعلوه تابعاً للفنون التشكيلية التي تجمد الحركة في المكان.

ومن الآثار السيئة التي تركتها النزعة الفوتوغرافية في الطبيعيين، أنهم أخفقوا إخفاقاً ذريعاً في تقديم نماذج بشرية مثل النماذج التي قدمها النقديون. وهذا أمر بدهي تماماً؛ ذلك أن النمذجة لا تقوم على نقل الجزئيات السطحية المباشرة في الحياة، بل تقوم على الاصطفاء والانتقاء للعناصر التي تبرز أعماق الحياة، وحركة التاريخ. إن ا لطبيعيين يهتمون بكل التفاصيل في الواقع، سواء